التضمين التداولي للإطناب في القرآن الكريم على ضوء نظرية الاستلزام الحواري

the pragmatic inclusion of redundancy in the holy qur'an in the light of the conversational implicature.

عبد الرحمان مبخوتي*

جمال موسى♣

تاريخ الإرسال: 2022/02/01	تاريخ القبول: 2022/06/29	تاريخ النشر: 2022/11/10

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى الكشف عن الأبعاد التداولية للإطناب في القرآن الكريم من خلال نظرية الاستلزام الحواري. وقد أفضى بنا البحث - انطلاقا من خرم القواعد المتولّدة عن مبدأ التعاون عند غرايس- إلى أن الإطناب يخرج إلى معان مستلزمة عديدة، منها ما هو ناتج عن خرق قاعدة الكمّ، ومنها ما هو ناتج عن خرق قاعدة الجهة. وهذه المعاني الضمنية جعلت من الإطناب أسلوبا بيانيا رفيعا، وأحد أوجه الإعجاز القرآني.

الكلمات المفتاحية: الإطناب، الاستلزام الحواري، مبدأ التعاون، المعاني المستلزمة.

Abstract:

this article aims to reveal the pragmatic dimensions of redundancy in the holy qur'an through the theory of conversational implicature .

based on the violating rules generated by grice's cooperative principle, the research has led us to the fact that redundancy brings out many required meaning , some of them are the result of violating the maxim of quantity while others are the result of violating the maxim of manner.

* مخبر اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغات جامعة الجزائر02

abderrahmane.mebkhouti@univ-alger2.dz

♣مخبر اللسانيات التطبيقية وتعليم اللغات جامعة الجزائر

m33djamel@gmail.com02

these implications made redundancy a fine figure of speech and one of the aspects of the qur'anic inimitability.

Key words.:redundancy, conversation nalimplicature, thecooperative principal, required meanings.

*** *** ***

عبد الرحمان مبخوتي abderrahmane.mebkhouti@univ-alger2.dz

. مقدمة:

في منتصف القرن العشرين برز تيار فلسفي يرى بأن المنطق والمعرفة العلمية ليسا قادرين على حلّ مشكلات الفلسفة، وأن اللغة العادية هي التي ينبغي أن تكون أساس التحليل الفلسفي.

وقد أكّد فتغنشتاينأن اللغة لا تقتصر فقط على التعبيرعما يجول في النفس وإيصال المعلومة، بل هي أساس الفكر، وهي ليست حسابا منطقيا دقيقا، بل تتسم بالمرونة تتغير معانيها بتغير السياق، بينما ذهب أوستين إلى أنّ اللّغة تتجاوز وصف الواقع إلى الإنجاز وتغيير العالم.

وكان غرايس من بين المهتمّين بدراسة استعمال اللغة والطّرق التي تُؤدّى بها، موليا عناية فائقة بالبحث عن مقصود المتكلّم، حين لاحظ اختلافه عن المعنى الحرفي في الكثير من المرّات. وتوصّل إلى إن الحوار يخضع لقواعد ومبادئ، وقد شكلت هذه القواعد والمبادئ نظرية أصبحت تعرف الآن بالاستلزام الحواري (التخاطبي).

ويعدّ الاستلزام الحواري واحدا من أهمّ جوانب الدّرس التّداولي؛ فهو ألصقها بطبيعة البحث فيه، وأبعدها عن الالتباس بمجالات الدّرس الدّلالي وهي من أهمّ النظريات في البحث التداولي، وأكثرها تأثيرا في تطوّره[1].

والمتأمّل للتراث البلاغي العربي يجد حضور ظاهرة الاستلزام الحواري في أبواب متعدّدة مثل: الأغراض البلاغية للأساليب في علم المعاني، أو المجاز والكناية في علم البيان.وسنحاول في هذا البحث إبراز البعد التداولي من خلال الوقوف على ملامح الاستلزام

الحواري للإطناب، وهوأحد الأساليب البلاغية الواردة في القرآن الكريم، انطلاقا من نظرية غرايس. وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة الآتية:

ما المقصود بالاستلزام الحواري؟ ما هي الأغراض التي خرج إليها الإطناب في القرآن الكريم؟ وكيف تمت عملية الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى المستلزم؟

2.الاستلزام الحواري في الدرس التداولي:

1.2مفهوم الاستلزام الحواري:

الاستلزام الحواري هو ترجمة للمصطلح (implicature)، وهو مصطلح جديد مشتق من المصدر (implicate)، وهو مخصّص لعملية الاستدلال التي تجري في التداول اللغوي تمييزا لها عن مصطلح اللزوم في المنطق (implication)المتعارف عليها[2].

لقد كانت نقطة البدء عند غرايس هي أن الناس في حواراتهم قد يقولون ما يقصدون، وقد يقصدون أكثر ما يقولون، وقد يقصدون عكس ما يقولون، فجعل كل همه إيضاح الاختلاف بين ما يقال (whatissaid) وما يقصد (whatismeant)، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بقيمها اللفظية (face values) وما يقصد هو ما يريد المتكلم أن يبلغه السامع على نحو غير مباشر اعتمادا على أن السامع قادر على أن يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال، فأراد أن يقيم معبرا بين ما يحمله القول من معنى صريح (explicit meaning) وما يحمله من معنى متضمن (inexplicitmeaning) فنشأت عنده فكرة الاستلزام (implicature)[3].

فالمتكلم يتفوه بكلمات وينتج عبارات دلالاتها الحرفية لا تعبر عن مقصوده، والسامع من خلال ما يملكه من قدرة وكفاءة واعتمادا على الظروف المحيطة بعملية المتكلم يمكنه الوصول إلى المعنى المراد. ويمكن أن نوضح ذلك بالحوار الآتي:

(أ) : سأسافر غدا إلى العاصمة.

(ب) : سيارتي معطلة.

إن كلام المحاور (أ) يحمل معنيين أحدهما معنى مباشر، وهو أنه يعزم على السفر غدا، ومعنى مستلزَم وهو أنه يطلب من محاوره أن يقلّه في سيارته، وقد فهم (ب) مراد المتكلم فأخبره بأن سيارته معطلة.

إذاً فالاستلزام الحواري يهتم بالتواصل غير المباشر، ويكشف عن المعاني الخفية التي يقصدها المتكلم ولا يصرّح بها، اعتمادا على سياق الكلام وملابسات الخطاب.

2.2 خصائص الاستلزام الحواري:

للاستلزام الحواري عند غرايس خواص تميزه عن غيره من أنواع الاستلزام الأخرى[4]:

•**إمكانية إلغائه:** ويكون ذلك عادة بإضافة قول يسدّ الطريق أمام الاستلزام أو يحول دونه فإذا قالت قارئة لكاتب مثلا: لم أقرأ كل كتبك، فقد يستلزم ذلك عنده أنها قرأت بعضها، فإذا أعقبت كلامها بقولها، الحق أني لم أقرأ أي كتاب منها، فقد ألغت الاستلزام. وإمكان الإلغاء هذا هو أهم اختلاف بين المعنى الصريح وبين المعنى الضمني، وهو الذي يمكن المتكلم من أن ينكر ما يستلزمه كلامه.

•**الاستلزام لا يقبل الانفصال عن المحتوى الدلالي:** ويقصد غرايس بذلك أن الاستلزام الحواري متصل بالمعنى الدلالي لما يقال لا بالصيغة اللغوية التي قيل بها، فلا ينقطع مع استبدال مفردات أو عبارات أخرى. ولعلّ هذه الخاصية هي التي تميز الاستلزام الحواري عن غيره من أنواع الاستدلال التداولي مثل الافتراض المسبق، ولعل ما أراد يتضح من الحوار بين أختين:

أ- لا أريدك أن تتسللي إلى غرفتي على هذا النحو.

ب- أنا لا أتسلل، ولكن أمشي على أطراف أصابعي خشية أن أحدث ضوضاء، فعلى الرغم من تغير الصناعة في قول (ب) فإن ما يستلزمه القول من عدم الرضا عن هذا السلوك لا يزال قائما.

•**الاستلزام متغير:** والمقصود بالتغير أن التعبير الواحد يمكن أن يؤدي إلى استلزامات مختلفة في سياقات مختلفة، فإذا سألت طفلا يحتفل بيوم ميلاده مثلا: كم عمرك، فهو طلب للعلم، وإذا سألت السؤال نفسه لصبي عمره خمسة عشر عاما فقد يستلزم السؤال

مؤاخذة له على نوع من السلوك لا ترضاه له، وإذا سألت السؤال نفسه لفتى يمنع من اتخاذ قرار لا يخرج عن تعاليم الدين ومواضعات الأخلاق والأعراف فقد يعني ذلك أنه من النضج بحيث يستطيع أن يتخذ قراره ويتحمل عواقبه، وعلى الرغم من أن المثال واحد والمبنى نفسه في الأمثلة السابقة فإن الاستلزاماتتتعدد بتعدد وتنوع السياقات.

•**الاستلزام يمكن تقديره: والمراد** به أن المخاطب يقوم بخطوات محسوبة يتجه بها خطوة خطوة إلى الوصول إلى ما يستلزمه الكلام فإذا قيل مثلا: الملكة فكتوريا صنعت من حديد، فإن القرينة تبعد السامع عن قبول المعنى اللفظي، فيبحث عما وراء الكلام من معنى.

وبناء على ما ذكرنا من خصائص للاستلزام الحواري، يمكننا القول أنه آلية هامة من آليات الاستدلال لإنجاح الحوار وضبط مساره، ذلك أنه يتسم بالمرونة وليس متعلقا بمعاني العبارات الحرفية بل هو مرتبط بمقاصد المتكلم وكفاءات السامع التأويلية.

وحاصل ما سبق أن الدلالة الطبيعية مرتبطة ببعض الظواهر الموجودة في الطبيعة وليس لها أي علاقة بقصد المتكلم، على عكس الدلالة غير الطبيعية المرتبطة بنوايا المتكلم ومقاصده.

3.مبدأ التعاون

لقد عُرف المبدأ التداولي الأول للتخاطب باسم (مبدأ التعاون)، وورد نص هذا المبدأ في اللسانيات الحديثة عند الفيلسوف الأمريكي بول غرايس، إذ ذكره لأول مرة في دروسه المرقونة بعنوان: "محاضرات في التخاطب"، ثم ذكره ثانيا في مقالته الشهيرة "المنطق والتخاطب[5].

ويقصد به ذلك المبدأ الذي يرتكز عليه المرسِل للتعبير عن قصده، مع ضمانه قدرة المرسل إليه على تأويله وفهمه. وصاغه على النحو الآتي:

- ليكن إسهامك في الحوار بالقدر الذي يتطلبه سياق الحوار، وبما يتوافق مع الغرض المتعارف عليه، أو الاتجاه الذي يجري فيه ذلك الحوار[6].

فبيّن [غرايس] أن هذا المبدأ يوجب أن يتعاون المتكلم والمخاطب على تحقيق الهدف المرسوم من الحديث الذي دخلا فيه، وقد يكون هذا الهدف محددا قبل دخولهما في الكلام أو يحصل تحديده أثناء هذا الكلام[7].

ولا شك أن اعتماد المخاطَب على السياق اللساني وغير اللساني للوصول إلى المعاني المستلزمة التي يقصدها المتكلم غير كافية، بل لا بدّ لهما من بذل مجهودات لإنجاح عملية التواصل، وهو ما سماه غرايس بمبدأ التعاون، وهو مبدأ يتأسس على أربعة قواعد[8].

ثم أدرج تحت كل قاعدة من هذه القواعد عددا من التوصيات. واتباع هذه التوصيات، وقواعدها الرئيسية أو خرقها، كفيل، من وجهة نظره، بنقل المعنى وتسيير المحادثة نحو الإفهام وتحقيق الهدف المشترك ، تعويلا على التعاون بين طرفي الخطاب[9].

إن هذه القواعد تستهدف من من وجهة نظر غرايسمبتغى واحدا يتمثل في ضبط مسار الحوار بحيث يؤكد على أن احترام هذه القواعد، بالإضافة إلى المبدأ العام، هو السبيل الكفيل يجعلنا نبلغ مقاصدنا حيث يفضي كل خروج عنها - أو عن إحداها – إلى اختلال العملية الحوارية، وفي هذه الحالة على المحاور أن ينقل كلام مخاطبه من معناه الظاهر إلى المعنى الخفي الذي يقتضيه المقام. وهو ما تناوله تحت مفهوم الاستلزام الحواري[10].

1.3قاعدة الكمية

وترتبط بكمية المعلومات اللازم توافرها:

- اجعل مساهمتك تتضمن أخبارا كافية.

- لا تجعل مساهمتك تتضمن أخبارا أكبر مما هو مطلوب.

ويوضح غرايس أن هذه القاعدة الأخيرة يمكن تفنيدها؛ لأنّ توافر كمٍّ كبير لا يخرق مبدأ التعاون، وإنما هو مضيعة للوقت فقط. فإذا تضمّن نص ما تفاصيل كثيرة، فإن ذلك يهدّد التواصل بالانسياق خلف بعض الجزئيات غير الضرورية[11].

2.3 قاعدة الكيفية:

وترتبط بقاعدة أساسية:

- اجعل مساهمتك صادقة. وتتفرع عن هذه المسلّمة قاعدتان خاصتان هما:

- لا تصرّح بما تعتقد أنه كاذب.

- لا تصرّح إلا بما تستطيع البرهنة عليه[12].

وتعتبر هاتان القاعدتان ضابطا لنقل الأخبار الصادقة بالتركيز على طرح كل ما هو كاذب، وإهمال كل ما نعجز على برهنته.

3.3 قاعدة الملاءمة أو العلاقة:

وهي بمثابة حد مقصدي، الهدف منها منع المتكلم من أن ينزلق إلى مقاصد أخرى مخالفة لتلك التي استهدفها الخطاب، أي يراعي علاقة المقال بالمقام، وتقول هذه القاعدة " ليناسب مقالك مقامك "، وترمي إلى أن يناسب القول ما هو مطلوب في كل مرحلة، أي وجوب تعلق الخبر بالمقام[13].

يؤكد غرايس أن هذه المسلّمة تخفي جملة من الإشكالات من قبيل: ماهي مختلف أصناف الملاءمة الممكنة؟ كيف تتعدل خلال عملية التبادل الكلامي؟ وما هي الإجراءات الطبيعية التي تساعد على تغيير موضوع المحادثة بطريقة مقبولة؟[14]

4.3 قاعدة الجهة:

وينص غرايس على وجود قاعدة جوهرية هي:

- كن واضحا. وتتفرع عن هذه المسألة القواعد التالية:

- ليكن تدخلك واضحا .

- ليكن تدخلك موجزا.

- اجتنب الغموض.

- اجتنب الالتباس[15].

وقد أوضح غرايس أن الغاية المرجوّة من هذه المسلمات تتمثل في ضمان فعالية عالية للتبادل الكلامي، دون أن يلغي ذلك إمكانية الحديث عن غايات أخرى، كأن يسعى المتكلم للتأثير على الآخرين أو الاستئثار باهتمامهم[16].

ومدار اختلافها عن القواعد السابقة من حيث كونُها لا ترتبط بما قيل، بل بما يراد قوله، والطريقة التي يجب أن يقال بها. الهدف منها تجنب الاضطراب والملل والإيجاز المخل في القول[17].

4.الإطناب في القرآن الكريم:

1.4 تعريف الإطناب:

1.1.4 لغة:

ينحدر مصطلح الإطناب من الجذر اللغوي (ط.ن.ب)، الذي تدور معانيه حول المبالغة والطول والكثرة، قال ابن فارس: "الطاء والنون والباء أصل يدل على ثبات الشيء وتمكنه في استطالة ... ومن الباب قولهم: أطنب في الشيء إذا بالغ كأنه ثبت عليه إرادة المبالغة فيه... وكذلك أطنبت الإبل إذا تبع بعضها بعضا في السير"(18).

وجاء في القاموس المحيط: "الطّنب بفتحتين: [...]طول في الرّجلين في استرخاء، وطول في الظهر وهو عيب، والنّعت أطنب وطنباء"(19). وفي المعجم الوسيط: " طنّب الشيءُ: كثُر حتى لا يرى أقصاه من كثرته ... وحاجات أطانيب: طويلة كثيرة لا تكاد تنقضي"[20].

2.1.4 اصطلاحا:

يرى السكاكي أن الإطناب هو أداء المقصود من الكلام بأكثر من العبارات المتعارف عليها ويقابله الإيجاز[21]،وعرّفه ابن الأثير بقوله: " زيادة اللفظ عن المعنى لفائدة "(22).

وقد نبّه البلاغيون إلى أن الإطناب يستعمل للحاجة وفي مواضعه وإلّا صار تشويها للفصاحة وإخلالا بالبلاغة، يقول أبو هلال العسكري: فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه

كالحاجة إلى الإطناب في مكانه؛ فمن أزال التدبير في ذلك عن جهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب اخطأ"[23]، ويقول في موضع آخر: " فالإطناب بلاغة، والتطويل عِيّ؛ لأن التطويل بمنزلة سلوكِ ما يَبْعُد جهلا بما يَقْرُب. والإطناب بمنزلة سلوكِ طريقٍ بعيد نَزِه يحتوي على زيادة فائدة"[24].

2.4 من صور الإطناب:

ينقسم الإطناب إلى بسط وزيادة[25]:

فالبسط: الإطناب بتكثير الجمل كقوله تعالى: ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربهم ويومنون به﴾، فقوله ﴿يومنون به﴾ إطناب؛ لأن إيمان حملة العرش معلوم، وحسّنه شرف الإيمان ترغيبا فيه.

والزيادة: قسمها السيوطي إلى عشرين نوعا منها: دخول أحرف التوكيد، الأحرف الزائدة، التوكيد الصناعي، التكرير، التفسير، وضع الظاهر موضع المضمر ...

ويعدّ الإطناب أحد أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، لتعدّد طرقه وصوره، وللأثر الذي يحدثه في نفوس السامعين، ولما يتضمّنه من أسرار بلاغية، هذه الأسرار هي معان مستلزمة يصل إليها المتلقي عن طريق السياق وقرائن الأحوال.

5. المعاني المستلزمة من الإطناب في القرآن الكريم:

سنحاول في هذا المبحث تطبيق جملة من القواعد الحوارية - التي أطلق عليها غرايس مبدأ التعاون والقواعد المتفرّعة عنه– على الإطناب في القرآن الكريم بغية الوصول إلى المعاني المستلزمة، ومعرفة كيفية الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم.

1.5 المعاني المستلزمة للإطناب نتيجة خرق قاعدة الكمية:

1.1.5 التهويل والتفخيم:

قال تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها وأخرجت الأرض أثقالها وقال الإنسان مالها يومئذ تحدث أخبارها﴾ [الزلزلة: 4/1].

وقد عُطفت جملتان على جملة الشرط (زلزلت الأرض) وهما: (أخرجت الأرض أثقالها) و(قال الإنسان مالها) وكان يمكن الاكتفاء بجملة الشرط الأولى في الدلالة على وقت حدوث يوم القيامة، لكن زيادة هذه المعلومات أدّت إلى خرق قاعدة الكمّ. واستلزم هذا العطف لجمل الشرط شدّة التهويل.

وسبب نزول السورة: كان الكفار كثيرا ما يسألون عن يوم الحسابفيقولون "أيّان يوم القيامة" ويقولون "متى هذا الوعد" وما أشبه ذلك، فذكر لهم في هذه السورة علامات ذلك فحسب، ليعلموا أنه لا سبيل إلى تعيين ذلك اليوم الذي يعرض الناس فيه على ربهم لعقاب المذنبين وثواب المؤمنين(26).

إذاً فإن الغرض من هذه السورة هو إثبات البعث للمنكرين والمكذّبين به من المشركين والكفار، ولو اقتصر الله عز وجل على جملة الشرط الأولى لكان هذا كافيا لإثبات البعث، لكن الله عز وجلّ عطف على الشرط جملتين، فصار المعنى إذا اضطربت الأرض ورُجّت، ولفظت الأرض ما في جوفها من كنوز وأموات، فيتساءل الإنسان متعجّبا وحائرا ماذا يجري لهذه الأرض. وقد أدّى هذه الإضافة - حسب تحليل غرايس-إلى خرق أحد قواعد مبدأ التعاون؛ وبالتالي الخروج من المعنى الأصلي الذي هو إثبات البعث إلى تصوير شدّ هول هذا اليوم وما ينطوي عليه من تخويف للمشركين والمكذّبين.

والجدير بالذّكر أن هناك آيات أخرى تماثل هذه الآية في الخروج من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم وهو تصوير أهوال يوم القيامة عن طريق خرق قاعدة الكمّ كون جمل الشرط المعطوفة تحمل معلومات إضافية وجوابها واحد، مثل بدايات السّور الآتية: التكوير، الانفطار والانشقاق. وارتأينا الاكتفاء بهذه السورة للتشابه من حيث الشكلُ والمضمونُ.

2.1.5 التنبيه على زيادة الفضل:

قال عزّ وجلّ: ﴿من كان عدوّا لله وملائكته وكتبه ورسله وجبريل وميكائيل فإن الله عدوّ للكافرين﴾ [البقرة: 98]

ومعنى الآية: أنه من عادى الله عز وجلّ بعصيانه والكفر به، ومن عادى الملائكة بإنكار فضلهم وبخاصة الملكين جبريل وميكال، ومن عادى رسله بتكذيبهم والسخرية منهم، فالله عدوّه ومجازيه بالعذاب الأليم.

نلاحظ الإطناب عند إعادة الله عز وجل لذكر الملكين جبريل وميكائيل بالرغم من دخولهما ضمن ملائكة الرحمن، وكان يمكن الاقتصار على ذكر الملائكة، وبالتالي تمّ خرق قاعدة الكمّ، والمعنى المستلزم أن الله تعالى خصّ الملكين بالتشريف والتمييز دون سائر الملائكة، ولو اكتفينا بالقدر المطلوب من الكلام دون إضافة، لاقتصرنا على المعنى الأصلي وهو مكانة الملائكة عند الله دون التنبيه إلى فضل الملكين جبريل وميكائيل.

3.1.5 التكميل (دفع التوهّم):

وهو من ضروب الإطناب، ويسمّى بالاحتراس أيضا، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه[27].

ومثاله قول الله تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا من يرتدد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المومنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم﴾ [المائدة: 54]

لم يقتصر الله عزّ وجلّ - في جواب الشرط - على ذكر صفة واحدة للقوم المؤمنين الذين سيقاتلون المرتدّين بل عدّد أوصافهم وهي:

- يحبّون الله ويحبّهم .

- يظهرون الرّقة للمؤمنين.

- يبدون الغلظة والشدة على الكافرين.

- بذل النفس والمال في سبيل الله.

- غير مبالين بالعتاب واللوم.

وهذه زيادات كان يمكن الاقتصار على صفة منهنّ، فتمّ خرق قاعدة الكمّ والمعنى المستلزم هو الثناء ومدح هؤلاء المؤمنين بتعداد مناقبهم وذكر أفضالهم التي منّ الله عليهم بها، لكن سنركّز في هذه الآية الكريمة على صفة (أعزّة على الكافرين) التي جيء بها هنا كي لا يتوهّم متوهّم أن الصّفة التي قبلها وهي الذّلّة على المؤمنين نابعة من وَهْن المؤمنين وضعفِهم.

4.1.5 التخصيص:

قال تعالى: ﴿ الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ﴾[البقرة: 197]

وتأتي هذه الآية لتبيّن وقت أداء فريضة الحج، ثمّ تحدّد المنهيّات الي ينبغي على من أوجب على نفسه الحج بالإحرام أن يجتنبها وهي: الرّفث، الفسوق والجدال.

ومعنى هذه المحرّمات الثلاثة[28]:

(لا رفث) أي لا جماع، أو لا فحش من الكلام.

(لافسوق) أي لا خروج عن حدود الشرع بارتكاب المحظورات. وقيل: السياب والتنابز.

(لا جدال) لا خصام مع الخدمة والرفقة.

والمتأمّل لهذه الآية الكريمة سيلاحظ أن هنالك إطنابا في الكلام، إذ كان يمكن عدم ذكر الرّفث؛ لأنه يدخل في الفسوق، وهنا حسب قواعد غرايس فقد تم خرق قاعدة الكمّ، والمعنى المستلزم هو تخصيص الرّفث؛ لأنه أعظم هذه المنهيات الثلاثة في منافاة مقصد الحج وهو تعلق القلب بالله تعالى.

وقد وقف فخر الدين الرّازي على الحكمة من حصر المحرّمات في ثلاث صفات لا أقلّ ولا أكثر، وأرجعها إلى قهر القوى الثلاثة: القوّة الشهوانية البهيمية المشار إليها في (لا رفث)، والقوّة الغضبية التي توجب التمرّد المشار إليها في (لا فسوق)، والقوّة الوهمية التي تحمل الإنسان على الجدال في ذات الله وصفاته وأسمائه المشار إليها في(لا جدال)[29].

5.1.5 التسلية وشحذ الهمم:

قال تعالى: ﴿إن تكونوا تالمون فإنهم يالمون كما تالمون وترجون من الله مالا يرجون وكان الله عليما حكيما﴾ [النساء: 104]

وجاءت الآية في سياق الحرب، وهنا يخاطب الله المؤمنين ويخبرهم إن كنتم تشعرون بالألم فإن أعداءكم يشعرون بالألم مثلكم، لكن تختلفون عنهم كونكم ترجون من الله الثواب وهم لا يرجونه.

ونلحظ الإطناب عند عدم الاكتفاء بجملة جواب الشرط واحدة، بل عطفت عليها جملة أخرى وهي (ترجون من الله ما لا يرجون)، وهذه الجملة المضافة أدّت إلى خرق قاعدة الكمّ، إذ لو اقتصر الجواب على جملة واحدة لكان الكلام تاما ومفهوما، لكن هذه الزيادة أخرجت معنى الآية من ظاهرها وهو إفراغ الصبر على المؤمنين، بتذكيرهم بأن الألم مشترك بينهما إلى معناها الخفي، وهو تشجيعهم على الجهاد والمصابرة في القتال، ذلك أنهم يرجون النصر أو الشهادة، وأيضا هي تسلية للمؤمنين، لإيمانهم الجازم بما أعدّ الله لهم من الثواب، وهي مزيّة خاصة بهم من دون المشركين.

2.5 المعاني المستلزمة للإطناب نتيجة خرق قاعدة الجهة:

1.2.5 التعظيم:

قال تعالى: ﴿وكفلها زكرياء كلما دخل عليها زكرياء المحراب وجد عندها رزقا﴾ [آل عمران: 37]

وتتحدث الآية عن مريم عليها السلام، إذ صارت في كفالة زكريا عليه السلام، وكان كلما دخل عليها مكان عبادتها وجد عندها طعاما ورزقا طيبا.

يلاحظ في هذه الآية الكريمة الإخلال بقانون الإيجاز عند إعادة كلمة (زكرياء)، فلو قيل: (وكفلها زكرياء كلما دخل عليها وجد عندها رزقا)؛ وبالتالي تمّ خرق قاعدة الجهة؛ فيدرك السّامع أن إعادة (زكرياء) كانت تعظيما له وتفخيما لشأنه.

2.2.5 الإهانة والتحقير:

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يامر بالفحشاء والمنكر ﴾ [النور: 21]

في هذه الآية يحذر الله عز وجل أن يتبعوا مسالك الشيطان ووساوسه؛ لأن الشيطان يأمر بالفحشاء والمنكر، ونلاحظ أنه قد تمّ خرق قاعدة الجهة، بانتهاك قانون الإيجاز في الكلام، إذ كان بالإمكان القول: (ومن يتبعه فإنه يامر بالفحشاء والمنكر)، دون تكرار لكلمة الشيطان، فخرج الكلام من معناه الأصلي وهو التحذير، إلى المعنى المستلزم وهو إهانة وتحقير الشيطان والتنفير منه.

وقد وردت آيات أخرى في القرآن الكريم تخرج إلى المعنى المستلزم السابقمنها:

- ﴿ يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا﴾ [مريم: 44]

- ﴿استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون﴾ [المجادلة: 19]

- ﴿فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ [النساء: 76]

- ﴿يا هامان ابن لي صرحا لعلي أبلغ الأسباب أسباب السماوات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذبا﴾ [غافر: 37]

- ﴿ إلى فرعون وملإه فاتبعوا أمر فرعون وما أمر فرعون برشيد﴾ [هود: 97]

3.2.5 الترغيب والترهيب:

قال عزّ من قائل: ﴿فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرّا يره﴾ [الزلزلة: 8/7]

ويُلاحظ إعادة عبارة (ومن يعمل) إذ كان بالإمكان الاقتصار على حرف العطف، وهذا التكرار أدى إلى انتهاك قانون الإيجاز في الكلام، وبالتالي خرق قاعدة الجهة، وأصبحت كل جملة لها دلالة خاصّة؛ الأولى ترغيب والثانية ترهيب. وقد تنبّه ابن عاشور إلى دلالة هذا التكرار فقال: " وإنما أعيد قوله (ومن يعمل) دون الاكتفاء بحرف العطف لتكون كل جملة

مستقلّة الدّلالة على المراد لتختصّ كل جملة بغرضها من الترغيب أوالترهيب، فأهمّية ذلك تقتضي التصريح والإطناب"[30].

إن معنى الآيتين الكريمتين دون تكرار العبارة (من يعمل) سيقتصر على ظاهر الآية وهو أنه من عمل وزن ذرّة من خير أو شر فسيجد جزاءه في الآخرة، والجزاء من جنس العمل. لكن عدم الالتزام بقواعد الجهة خرج به إلى الزيادة في الترغيب بتحصيل الخير ولو كان قليلا جدا، وزيادة الترهيب من فعل الشرّ ولو كان زنة ذرّة.

وعلى هذا النهج جاءت الآيات التالية:

﴿من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدّنيا نوته منا وماله في الآخرة من نصيب﴾ [الشورى: 20]

﴿من كان يريد العاجلة عجّلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مومن فأولئك كان سعيهم مشكورا﴾ [الإسراء: 19/18]

4.2.5 تربية المهابة وإدخال الرّوع في نفس المخاطب:

ونجد هذا الغرض في الآيات الكريمات التي اشتملت على أسماء الله الحسنى، نحو قوله تعالى: ﴿ سل بني إسرائيل كم آتيناهم من اية بينة ومن يبدّل نعمة الله من بعد ما جاءته فإن الله شديد العقاب﴾ [البقرة: 211]

تأتي هذه الآية الكريمة في سياق توبيخ الله عز وجل لبني إسرائيل بعد أن جحدوا الآيات الواضحات، وقد غيّروا وحرّفوا فتوعّدهم الله بشديد عقابه.

وقد أعيدت لفظة الجلالة وأظهرت، وكان بالإمكان إضمارها تجنبا للتكرار، ووفقا لقواعد غرايس فإن هذا التكرار أخلّ بالإيجاز، وتمّ بالتالي خرق قاعدة الجهة، والمعنى المستلزم الناتج عن إعادة لفظة الله هو التعظيم والتفخيم، المناسب لمقام الوعيد، فالغرض من التعظيم والتفخيم هو إلقاء الرّوع في قلوب المبدّلين.

وقد أبانا بن عاشور عن سبب هذا التكرار قائلا: "وإظهار اسم الجلالة هنا مع أن مقتضى الظاهر أن يقال: فإنه شديد العقاب، لإدخال الرّوع في ضمير السّامع وتربية المهابة، ولتكون هذه الجملة كالكلام الجامع مستقلاّ بنفسه؛ لأنها بمنزلة المثل وأمر قد علمه الناس من قبل، والعقاب هو الجزاء المؤلم عن جنية وجرم، سمّي عقابا لأنه يعقب الجناية"[31].

وقد وردت آيات كثيرة، فيها خرق لقاعدة الكمّ بتكرار اسم الجلالة ومستلزمة المعنى السابق، منها:

- ﴿ واتقوا اللهَ ويعلّمكم اللهُ واللهُ بكلّ شيء عليم﴾ [البقرة: 281]

- ﴿ ولو كنت فظّا غليظ القلب لانفضّوا من حولك فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاوِرهم في الأمر فإذا عزمت فتوكّل على الله إن الله يحبّ المتوكّلين﴾ [آل عمران: 159]

- ﴿ ولو انهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيوتينا الله من فضله ورسوله إنّا إلى الله راغبون﴾ [التوبة: 59]

- ﴿ ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب﴾ [آل عمران: 19]

- ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعدّ حدود الله فأولئك هم الظالمون﴾ [البقرة: 227]

5.2.5 إظهار كمال الاعتناء بالشيء:

قال عزّ وجلّ: ﴿الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحجّ﴾ [البقرة: 197]

ويلاحظ في هذه الآية تكرار كلمة الحج وإظهارها بدل إضمارها، ومقتضى الظاهر أن يقال: الحج أشهر معلومات فمن فرضه فيهن فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فيه. وهنا - حسب قواعد غرايس- فقد تمّ خرق قاعدة الكمّ، إذ لم يحترم قانون الإيجاز في الكلام." والإظهار في مقام الإضمار لإظهار كمال الاعتناء بشأنه، والإشعار بعلّة الحكم فإن زيارة البيت المعظّم والتقرّب بها إلى الله تعالى من موجبات ترك الأمور المذكورة المدنّسة لمن قصد السير والسلوك إلى ملك الملوك، وإيثار النفي للمبالغة في النهي والدلالة على أنها حقيقة بأن

لا تكون، فإن ما كان مستنكرا مستقبحا في نفسه منهيا عنه مطلقا فهو للمحرم أنكر وأقبح كلبس الحرير في الصلاة، ونحسين الصوت بحيث تخرج الحروف عن هيآتها"[32].

6.2.5 الاستئناس وإذهاب الحزن:

قال عزّ وجلّ: ﴿من كان يريد العزّة فلله العزّة جميعا﴾ [فاطر: 10]

نقل أبو حيان الأندلسي اختلاف المفسّرين والنحاة في تقدير جواب الشرط المحذوف " فعلى قول مجاهد فهو مغلوب. وعلى قول قتادة، فيطلبها من الله، وعلى قول الفراء، فلينسب ذلك إلى الله. وعلى القول الرابع فهو لا ينالها، وحذف الجواب استغناء عنه بقوله (فلله العزّة جميعا)، والظاهر من هذه الأقوال قول قتادة فليطلبها من الله"[33].

ومعنى الآية: من أراد العزّة فليطلبها من الله فهو يؤتيها من يشاء، فلا عزّة إلا في الإسلام.

وقد أُظْهرت كلمة العزّة وكان بالإمكان إضمارها، ومقتضى الكلام يكون (فهي لله جميعا)، وهذا الإظهار أخلّ بالإيجاز مما أدى إلى خرق قاعدة الجهة، إذ يصبح المعنى المقصود ليس المعنى الحرفي، بل معنى مستلزم أشار إليه القرطبي - في تفسير (فلله العزّة جميعا) - بقوله: "إيناس السامعين من عزّته، وتعريفهم أن ما وجب له من ذلك لا مطمع فيه لغيره ... و هوالمفهوم من قوله الحقّ في سورة يونس﴿ ولا يحزنك قولهم إن العزّة لله جميعا﴾ [الآية: 65]"[34].

وفي إعادة لفظة (العزّة) ما يبعث السرور في النفس، وما ينشرح له الصدر، وما يُذهِبُ كلّ وحشة.

6.خاتمة:

ومن خلال هذا البحث الذي درسنا فيه الاستلزامات الحوارية للإطناب في القرآن الكريم اعتمادا على المنهج التداولي، فإننا توصّلنا إلى النتائج الآتية:

- إن التزام المتخاطبَين بمبدأ التعاون والقواعد المتفرعة عنه أثناء الكلام، يجعل من معانيه صريحة وحقيقية، لكن عند خرق أحد القوانين تصير المعاني مستلزمة وضمنية.

- الإطناب من الأساليب البيانية الواردة في القرآن الكريم، ويعدّ أحد وجوه الإعجاز القرآني.

- للإطناب أغراض بلاغية ومعان ضمنية تفهم بمعونة السياق والقرائن.

- الإطناب عن طريق زيادة العبارات أو الجمل يخرق قاعدة الكمّ، ويخرج إلى معان مستلزمة مثل: التهويل والتفخيم، التشريف والتمييز، دفع التوهم، التسلية وشحذ الهمم...

- الإطناب بوضع الظاهر في مقام المضمر ينتهك متطلّبات الإيجاز في الكلامفيخرق قاعدة الجهة، ويخرج إلى معان مستلزمة مثل: التعظيم، الإهانة والتحقير، الترغيب والترهيب، تربية المهابة وإدخال الروع في نفس المخاطَب، إظهار كمال الاعتناء بالشيء، الاستئناس وإذهاب الحزن ...

5. الهوامش:

[1] **محمودأحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، د.ط، 2002، ص 32.**

[2] **ينظر: العياشي أدراوي: الاستلزام الحواري في التداول اللساني من الوعي بالخصوصيات النوعية للظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها، دار الأمان، ط1، الرباط، المغرب، 2011 م، ص 17.**

[3] **أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص 33.**

[4] **أحمد نحلة، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص38، 39، 40.**

[5] **طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998، ص 238.**

[6] **ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، ط1، 2004، ص 96.**

[7] **طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص 238.**

[8] **ينظر: جواد ختام، التداولية أصولها و اتجاهاتها، ص 101.**

[9] **ظافر الشهري، استراتيجيات الخطاب، ص 96.**

[10] **العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 100.**

[11] **جواد ختام، التداولية أصولها و اتجاهاتها، ص 101.**

[12] **المرجع نفسه، ص 102،101.**

[13]العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 99، 100.

[14]جواد ختام، التداولية أصولها و اتجاهاتها، ص 102.

[15]المرجع نفسه، ص 102.

[16]جواد ختام، المرجع نفسه، ص 103،102.

[17]العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، ص 100.

[18] ابن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، 1979، دمشق، ج3، ص 426.

[19]مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تح: أنس محمد الشامي وزكريا جابر أحمد، د.ط، 2008، دار الحديث، القاهرة، ص 1019.

[20]مجموعة من المؤلفين، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط4، 2001، ص 567.

[21] ينظر: ابو يعقوب يوسف ابن أب بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983 ص 277.

[22]نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني أبو الفتح ضياء الدين المعروف بابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر،

[23]أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة والشعر، تح: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، 1952، ص 190.

[24]المرجع نفسه، ص 191.

[25] ينظر: أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، تح: مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنوّرة، 1426 هجرية، ج4، ص 1673/1638.

[26] أحمد مصطفى المراغي، تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي وأولاده بمصر، القاهرة، ط1، 1946، ج30، ص 218.

[27] ينظر: المراغي، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع، دار الكتب العلمية، بيروت، ط3، 1993، ص 195 وبدوي طبانة، معجم البلاغة العربية، دار المنارة للنشر والتوزيع جدّة و دارالرّفاعي للنشر والطباعة والتوزيع الرياض، المملكة السعودية، ط3، 188، ص 585.

[28] أبو الفضل شهاب الدّين السيد محمود الآلوسي البغدادي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج2، ص86.

[29]فخر الدين الرازي، مفاتيح الغيب، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بروت، ط1، 1981،ج5، ص 180، 181.

[30]محمد الطاهر ابن عاشور، تفسيرالتحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984، ج30، ص 495.

[31]ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج2، ص 293.

[32]الآلوسي، روح المعاني، ج2، ص86.

[33]أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، ج7، ص 290.

[34]محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، الجامع لأحكام القرآن والمبيّن لما تضمّنه من السّنّة وآي الفرقان، تح: عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 2006، ج17، ص 354.